

جَنِّ الْبَحْرِ

لِلْكَاتِبَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ "جول ميشير"
بِسْمِ السَّيِّدِ مُحَمَّدٍ الْعِزَّازِيِّ

« أيها الناس هلموا ! فاصبرنا
رجل إلا سحر الفناء ليه ، وألهم حسه ،
فانتقل إلى عالم الخلد مسروراً ، عالمًا بما
لم يكن يعلم في الحياة الأولى ... »
« نحن نعلم ما على الأرض جميعاً ،
إن هي إلا أمتنا ... »

ثم استنوب جالسات على وصيد الكهف يلوحن
بأيديهن فرحاً وطرباً ، مستبشرات بالقادمين
النازلين ... أهلاً وسهلاً !

وكانت أصواتهن رقيقة ناعمة . يلفها ريح البحر
الحمّ فيزيد من غموضها وجلالها ... يخالطها البحر
بسحره وسلطانه فيجذب نحوها السامع كما تجذب
النار الفراش ...

واصطرع أوديسيوس على السارية بوثاقه .
وطفق يجذبه وينجيه عنه في بأس وقوة ، ثم يدعو
رجاله أن يفكوا وثاقه . ولكن الرجال أحكموا
الوثاق ثانية ، وشدوه من جديد . وظن «أوفريون»
— أحد أعوانه — أن ذلك الفناء الذي هز رب الحكمة
والجد فصارع الأغلال من أجله — لا بد أن يكون
جميلاً ساحراً وليس بكثير أن يموت المرء من أجله
فانتزع الشمع عن صماخيه فسمع الفناء فاذا هو في
لجة البحر وقاموس التبج ، بصارع اليم المتدافع
ويجالد الموج الهادر ... ساجداً إلى « السريينات
الصادحات » . وحزن السفر لما رأوا ، وعن
عليهم أن يتركوا أخاهم لليم صيداً أو للجنيات غنائاً ؛
ولكن أوديسيوس — من فوق — دعاهم بنظرة راجية
أن واصلوا السير علنا نبرح المكان فننجد من
بلاء عظيم

احتبست الريح عنها إذ هي تحاذي الشاطئ من
جزيرة « جن البحر » فلم يمد أحد يسمع للرياح
عواء ولا عويلاً ، أو يسمع للموج هديرًا ولا هزيمًا ،
أو يدرك في اليم عوجاً ولا أمتاً ؛ فهو الآن هادي
سادر ، تنفجر الرهبة من جوانبه ، وتلبع الوحشة
من نواحيه . وإذ رأى الركب ما رأى من عنت
البحر وبأسه طوى الشراع للسارية ثم استكانوا
لقد كان أوديسيوس وصحبه . فقد أحنقوا
نبتيون الجبار ، فأرسل عليهم الرياح عذاباً فهي
عاصفة قاصفة ، لا تبق ولا تذر . وألب عليهم البحر
عقاباً فهو شمس لا يستفيد ولا يلين . . لكم كان
البحر لهم بلاء ، وأي بلاء ! وقد استعذبوها في
سبيل راثيا كما !

واستمع أوديسيوس لما نصحت به « سيرس »
الماشقة ، فمجن الشمع ، وصبه في صماخيه حجاً
كثيفاً ، وفي آذان صحبه فهم صم لا يسمعون .
وشده الرجال — كما أمر — إلى السارية بحبال
غلاظ شداد ، ثم طفقوا يزيمون عن السفينة زبد
البحر الغاضب

وكانت جنيات البحر يشهدن تقدم السفينة
— من كهفن — بصبر وشغف . حتى إذا ما دخلت
السفينة مجال السمع بدان الفناء :

من غناء عرائس البحر الحسان . ولكن لن يتم لي
سعد أو تطيب لي نفس إلا أن أموت على يديك
أنت من دون أخوانك جماء !

فحفظت عينا الغانية من دهشة واستغراب ،
منكرة عليه ثبات جناحه وهدوء نفسه ، إذ لم تمتد
أن تري وجهها من وجوه ضحاياها الكثير يمر عن
الرغبة ويهرب عن العزم مثلما عبر هذا وأعرب .
لقد كانت عيون ضحاياها لا تشف إلا عن فزع
ورعب ميت . إلا حين ينهكما التعب فهي شاحصة
لا تطرف ، أو يعميها الهول فهي جاحظة لا تبصر .
فما لعيني هذا الرجل يلمع فيهما بريق العزم وضوء
التفكير ؟

فاستدارت الجنية لأخواتها وقالت آصرة :

— تخلفن فإن الغريب غنيمتي !

وأطاعتها الجنيات الأخر . فربما كان لها عليهن
نفوذ وسطوة ، أو في قلوبهن حب وحظوة . أو ربما
كان ذاك جرياً على عرف تواضعن في عليه قسمة
الضحايا . فانفردت بالاغريق تسائله عن اسمه وخبره
فلما قص عليها منه ذكر آ قالت :

— فديتك يا أوفريون ! لقد علفتك ! وما أظنها
إلا المرة الأولى إذ أصرح فيها بالحب وأستشعر الهوى !
فسألها الاغريق :

— وأنت ما اسمك يا عروس ؟

— ليكوسيا !

أما الجنيات الأخر فقد تركن المتحايين بعيشان
في سلام ودعة . ولعل ذلك كان جرياً على العرف
الذي تواضعن عليه ، والذي لا نعلم من أمره شيئاً .
وكان بداخل الكهف مرج خصب نه يتوسطهم

وسبح أوفريون بما أوتي من قوة المضل ،
فقد كانت الرغبة الملحة تهتك صدره ، وتدفعه شهوة
السباع فيسابق الريح إلى الصوت سبقاً
وكانت المياه اللامعة تدلف في وهج الشمس ،
آمنة إلى كهف بالشاطئ القريب ؛ والجنيات السبع
قد اجتمعن على وصيده صادحات فرحات
وليس بخاف أن الجنيات غريبات التكوين ؛
فهن إلى ما يلي الخصور أبكار كواعب ، نحيلات
الخصور ، مربعات الصدور . وهن طويلات النحور
حور العيون ؛ يملو الجبين منهن شعر غزير أصفر
كأنه سبائك الذهب ... وكانت أسنانهن مشدودة
منضدة في أفواه واسعة ركبت في وجوه بريئة
ضاحكة كوجوه الأطفال . أما ما بعد الخصور
فتكسوه حراشيف ناتئة تملوها فلوس لامعة . ويمكن
للداني منهن أن يرى أذيالهن — ذات الألوان
الرائعة — تبصبص في الماء تهاً وعجياً

ولما اقترب منهن سكن الجوفلا غناء ولا صدى ،
ثم توائبن عليه توائب الدناب على حمل ودبع . وصحن
سيجات المقبان المنقضة ؛ وجذبت به إلى داخل
الكهف المغم ، فنضون عنه الثياب ، ثم طرحته
على تل من عظام وجاجم ؛ إذ كان من دأب هؤلاء
الجنيات أن يلتقطن من حطمت سفائنهم على شعاف
الصخور البارزة في قاموس البحر ليمتصن دماءهم
بشفاهن اللمس المكتزة

والآن تراءى لأوفريون أن إحداهن أقوى
سحراً من أخواتها الأخر وأشد فتنة ؛ فعيانها
تشعان ما لا تشع عيون أخواتها من حنان وعطف
فولاهها وجهه ثم قال :

— إنني لأموت سعيداً بعد أن سمعت ما أطربنى

النفوس .. وصحيح ماقلت، فإن الكلمات التي تفنن بها والتي يسميها أوفريون صباح مساء — لم تكن تدل على شيء محدود، بل كانت تنير في النفس ماثيره جمال الشروق وجمال الغروب؛ وكانت تستمد قوة السحر من حنان أصواتهن الذي يأسر القلب البشري ويمطله من الحكمة والمزم وقد وضع ذلك لأفريون وضوحاً ..

ولم تكن ليكوسيا غافلة عن أحزان حبيبها العزيز، فكانت تنعشه بقبلات حارة، وكانت تلغقه إذ هو يفرص في البحر إعياء لأنها كانت أوفى منه قواماً وألين عضلاً. وقد تهبه ظهرها صهوة يمتطئها إذا كده النصب. ولكنها كانت تقبضه — إذا ما كانا في المرج الخصب — على جوارحه الماهرة التي لم يكن لها منها إلا ساعدان مجفاوان لا يفتنيانها كثيراً إذ هي تسايهه، وذبل بموقفها إذ هي تشائيه، واستشمرت قصور عقلها وذكاء عقله، وأحست فوق ذلك — بنقصها رغم الخلود، وكاله رغم الفناء. لقد كانت تعلم أن عقله يبي مالا يبي عقلها من عوالم غريبة لا تعرف عنها قليلاً أو كثيراً، فكانت تقبضه وتحسده لكل ذلك ثم ودت لو كانت بشراً سوياً. وأخذ أوفريون على عاتقه أن يعلمها ما لم تحط به، ويهيئها عما تجهل أفكاراً وصوراً. ولكنه تبين الفشل سريعاً. فقد كانت لا تستطيع أن تتصور ما يقول أو تفقه له معنى. وكيف تفهم وهي تسمع ألفاظاً للمرة الأولى؛ ثم كيف تفهم وهي لم تتخذ غير البحر مقاماً ومستقراً

وبدت له الحياة ثقيلة نوعاً؛ فقد زال عن ليكوسيا روعة الحديد وبهجته، وتولى عنها سحر الغامض وجلاله. ثم ... ثم هي جنية لا تفنى

من ماء معين؛ كان أوفريون يروي منه غلة الغلما بعد أن يفتدى بلحم السمك السمين.

ولم تفارقه ليكوسيا بعد ذلك أبداً: فهما يسبحان حتى تكل سواعدهما وتهن قواهما. وهما الآن بسفح الموج وبعد حين على الأعراف؛ وهما يجنب الشط طوراً وفي القاموس أطواراً. تضمه إلى صدرها بينما هما في الوشل، وتنفذ إلى صدره — بعد أن ترق شعاف الصخر الناتئة — فكأنها مهم مراش. حقاً لقد كانا سميدتين تحت ضوء الشمس المشرقة. وكثيراً ماداعبا الحيتان في عودتهما إلى الكهف الوقور.

وإذا جن الليل نامت الجنيات على الشاطئ تاركات أذيالهن في الماء. أما أوفريون فكان ينام بالمرج في أحضان ربة البحر ليكوسيا. ولم تكن أحضانها بذات دفء فيلتبس فيها ملاذاً من البرد وماوى.

وكانا قليلاً ما يتجادلان، إذ لم تكن تلم ليكوسيا من الكلام إلا بما سمحت به إقامتها بشاطئ البحر الأبيض المتوسط. فهي تستطيع أن تسمى «السماء» و«البحر» و«الشمس» و«القمر» و«النجوم» كلا باسمه؛ وأن تسمى الصخور قاطبة والسمك كافة. وهي تستطيع أن تقول إني «أرى» و«أسمع» و«أعشق»، وإني «أريد» و«أمل» و«أفعل». وكان هذا كل مالها من لغة.

وسألها أوفريون يوماً «كنتن تفننن — حين سمعت غناء كن من الفلك المسرع — بعلم مالا يعلم البشر. فهل لك أن ترينيه يا ليكوسيا؟»

ولكنها أفهمته بأن ما ذهبن إليه في أغانيهن باطل، لا يقصدن به إلا الكيد وإنارة التطلع في

علم أفر يون بذلك حزن واستخذى . وأيقن أن الحب الذى مس قلبها عاجز أن يهبه الحنان خاصة تميزه . وأيقن — كذلك — أن العطف والحنان قد اختص بهما القلب البشرى دون العالمين

ليس بخاف أن جنيات البحر ينشقن الهواء فى البر والبحر على السواء . وقد سرت تلك الميزة إلى أفر يون بمد أن هذبها قوانين البشرية، فهو يستطيع الصوم عن الهواء تحت الماء أكثر مما يستطيع غواص مجيد . وكان أحب اللهو إليه أن يغوص بقاع البحر بين صروج المرجان والعشب الجميل ، وأن يهيم بينها متمججاً لها ، فى حيرة من أمرها : أمى أزهار أم أحجار أم حيوان يشمر ويرى !

وقد عثر يوماً بقاع البحر على فلك عظيم ووجد بين ألواح ودرسه صحافاً من ذهب وأوانى من خزف بديع . ووجد أكوأباً وأباريق ، وقد رآ من ذهب فى صندوق منين . وعثر على جواهر وقلائد ونطقاً من حرير ومرايا وأساور من فضة ثم عدة لوحات تحاكي الطبيعة الساحرة

واستعان على إخراجها ليكوسيا ، فكانت خير معين . وقد حلتى جيدها الماثل بقلادة وطفاء اللوائب والأهداب ؛ وذراعها بأساور من فضة ، وطوق خصرها الدقيق بنطاق من حرير ، ثم ثبت فى يدها مرآة صافية

وملأ قلب ليكوسيا الفرح إذ ترى صورتها الجليلة فى مرآة صافية . وطلق أفر يون يفسر لها ما استمعى عليها فهمه ، وشرح لها ما تمثله اللوحات من مناظر الطبيعة . فبدأت ليكوسيا تفهم العالم الذى حاول أفر يون أن يهبها عنه فكرة ضحلة . لقد

(٥)

الانسى شيئاً ؛ فلا هو من أصلها ولا هى من طينته ولا هى واحدة فيه ما ترنمى ، ولا هو واحد لديها ما يشتهى ... وران على قلبه الحزن. أن يأتي عليها دهر تدري فيه فتريحه ، أو تنقلب إنساً فتسمعه وتمينه ؛ أو يأتي عليه حين ينقلب فيه إلى جنى فينسى آله وصحبه ، ويستريح من الجوى والحنين ؟ ولج به الحنين إلى الوطن فتبره تقبيراً ... ففى الليل بينما يهجع فى أحضان ربة البحر تسبح أفكاره وراء البحر إلى عالم البشر . فيبصر بعين الخيال الوام أنهاراً وغاباً ، وجنات وحقولاً ، ويبصر مدناً وخلقاً كثيراً .. ويرى الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام ، والراسيات على الشواطىء كالأطواد .. وينعطف بصره بفتنة إلى المواخير غصت بالمعريدين السكارى ... هم الآن فى شغل فكهمون : أمامهم خمر عتيق لدنة للشاربين ، تنهادى بينهم الغانيات النشأوى منثنيات صاحكات مداعبات بإسمات ؛ ينضدن على شعورهن اللامعة زهراً ناضراً وجيلاً .. هن — دون شك — دقيقات الحصور ، ناضجات الأنوثة مثمرات الصدور ... مرهفات القوام ... رقيقات السواعد والأقدام ... و ... إلى آخر ما يصوره خيال المحروم

وحدث أن مرَّ بالمكان فلك منكود جذبه سحر الصوت وترجيع الصدى فاستوى الفلك على صخور قريبة . وهرعت إليه الجنيات هادرات صاخبات . وانقضضن على ركبه — وقد أنشبن فيهم أنيابهن الفاطمة — يمتصن دماءهم الزكية . وتخلفت ليكوسيا عن أخواتها فلم تشاركهن الغناء أو الغداء . وما كان ذلك ميلاً عن الطبيعة أو عزوفاً عن الطعام ، ولكن مجاملة لأفر يون الحبيب . ولما

ألفته عالمًا غريبًا جذابًا . فقالت برنة الأسى ولهجة الحزن : « وددت لو فهمت ما في الأرض جميعًا . ولكن لن تنفي الودادة ، فإنا إلا ربة بحر قدر عليها نبتيون ألا تبرحه . »

ودار بخلد أوفريون أن يستغل تلك الحسرة . فزين لها الرحيل إلى الأرض ، وحرصها على هجر اليم الصاحب إلى البرالوابع ... فهو يغريها بالوعود الخلاب والاماني الباسمة ؛ وهو يحدثها عن أشجار وأطياف ، ورياض وبساتين — أنشأها له خياله الخالق . وهو أخيراً يقص عليها من أخبار الناس كل طريف ... وما ذلك إلا ليهرب من جزيرة « جن البحر » وينقلب إلى أهله مسروراً :

— لو تستطيعين السير معي يا ليكوسيا لركبنا الموج إلى بلد يدعى « أثينا » لا يبعد عنا إلا سبع ثلاث ليلال .

— ولكني لا أستطيع أن أعيش على البر ، أو أمضي زمناً .

— سوف أعينك على أمرك : فإذا كنا بالبلد الأمين سأتيك بمرية كاحدى ما أريتك في اللوجات فتقلنا إلى حيث نهوين الذهاب . وسوف نحيا في نعيم بما نحمل من ذهب وفير وخير كثير ...

ولم يسح لها بما يكن قواده من شتى الأمور .. ولم يكن سبع ثلاث ليلال بمعجز ربة البحر ، ولكنه كان على إفريون بلاء عظيم . وعلى أية حال فقد وصلا الأرض ؛ وهبطا شاطئاً غير ذي أهل ولا زرع . ولم تكن المدينة تبعد عنه طويلاً ، إذ كانت تتراءى على أبواب الأفق ، ولكن الطريق إليها كان وعراً متعباً . وطاق إفريون يخفف على نفسه من ورق الشجر ما كساه كساء مقبولاً .

وسارته الجنية بيديها فرحة مرحة . ولكن السير مالبث أن آلمها ، وآذاها والحرم مالبث أن خنق أنفاسها

— أفر يون ! عطفاً على !

— عطفاً ؟ عطفاً ؟ ما نطقت بتلك الكلمة من قبل !

— ذلك لأنى لم « أقاس » حباً أو شقاء . إصغ إلى : إني موقنة بأنى حمل « بؤودك » ، إلا إذا استويت إنسانة تؤنسك وتؤمى جراحك . وما أجدر عن

التلاحقة المبهورة .. وصبقها أفر يون في السير فنادته : — أفر يون ! إن الأرض صعب سيرها شديد حرها . وقد حملتك فاحملنى بدورك .

وما كان له أن يتخلى عنها فلا حبها يسمح ، ولا المروءة ترضى . فماد وحملها فطوقته بزراعها ، بينا ذيلها يثير خلفهما عثيراً وتراباً .

وتسابل العرق على وجهه المكدود ، وناء تحت حمله ، فوهت أعصابه وتمردت نفسه على ذلك الخلق الذى يحمل ... وعجب لنفسه إذ يصطحبها : فبالله ماذا يفعل بتلك السمكة الخنثى بين الناس ... ؟ ولم يكن منه إلا أن طرحها بعيداً عنه ، وعدا نحو المدينة مسرعاً . فأعولت ليكوسيا :

— أفر يون ! أفر يون الحبيب !

لقد كان التوصل يائساً حزيناً ، تحرك له قلب أفر يون فماد وهو يقول :

— ألا فاصبرى يا ليكوسيا ! فإني عائد بعد حين بمرية تقلنا للمدينة

— لا ! لا ! إني موقنة بأنك لن تعود ... إنك لم تعد تحبنى لأنى لا أحكي الانس فى شئ . وما ذاك ذنبى ! ألا فاذكر نعمتى عليك يا أفر يون إذ أنت إلى اليوم حى ... أتريد بعد ذلك فنائى وموتى ؟ يالك من جحود ... آه لو تعلم عظيم التضحية ... إن الآلهة قد نضت عنى ثوب الخلد لأنى علفتك ! وضمت إليها يديها إذ تفيض الدموع من عينيها للمرة الأولى !

— أفر يون ! عطفاً على !

— عطفاً ؟ عطفاً ؟ ما نطقت بتلك الكلمة من قبل !

— ذلك لأنى لم « أقاس » حباً أو شقاء . إصغ إلى : إني موقنة بأنى حمل « بؤودك » ، إلا إذا استويت إنسانة تؤنسك وتؤمى جراحك . وما أجدر عن

عظفت على إحدى فتاتي - ربة البحر ليكوسيا -
 وكنت من سؤلك قاب قوسين أو أدنى ... لقد
 أحب كل منكأ أخاء وأعلى مقامه . وإني بكأ
 لفرحة طروب؛ وإن لكأ عندى أحسن الجزاء فالتساه
 في واحد مما أرى ... أنا مستطبعة - ياليكوسيا -
 أن أمحو - قبل أن أسرحك - ما تخلف بقلبك من
 ذكر هذا الآدى . وأنا - يافريون - زعيمة بأن
 أهبك هيئة الحوت مبقية لك على روحك الآدى
 وعقلك ، كي تميش مع ربة البحر رغداً سعيداً ...
 ولكنى أفضل أن أهبكأ السعادة كما ترغبان ...
 والآن ياليكوسيا! أنضو عنك ثوب الخلد ثم تميشين
 في دنياه إلى حين ؟

— يقيناً ! فإني الخلد من غناء !
 — لا شكر لك ولا أجر !
 — آه ! مولائي الأجل بك الصبح وأولى ! كنت
 أتحدث عن نفسي ...
 — لا تنرب عليك الآن . فإني أفهم مانقولين
 جيداً . والآن ! أنصبحين آدمية !
 — نعم !

— إذن فكوني بشراً سوياً !
 ولستها برمحها الرشيق فإذا هي امرأة تسمى .
 — والآن يافتاتي ! أسرعي إلى تلك الراهبة في
 ذلك الدير القريب واسألها إزاراً وبردأ ثم سيرى
 خلف فتاك ولا تعصى له امرأة ...
 وعقل الفرح لسانيهما ، وعطال الدهول حواسيهما
 فما استطاعا شكرأ ولا سجوداً ...

وانفزل الماشقان .. وابتسمت لهما إذ يودعانهما .
 ولكن ما أمر بسمتها .. بسمه حزينة مشفقة !
 لقد خاخرها الشك فيها وهبت من سمادة ونعمة .
 السيد محمد العزاري

حالي هذه حولاً ... على أن ما رأيت من عالك
 أفرغني وأرعبني فلا يحزنك أمرى ... ولا تنفئس
 إذ أعود لليم مرة أخرى ، فأسير سيرتي الأولى
 مع أخواتي القاسيات

— القاسيات ! ! أنى لك تلك اللفظة الأخرى !
 — واحسرتما ؟ لقد علمتني أنت معناها !
 ولم يعب الرجل على ما قالت كلاماً . بل حملها
 بين ذراعيه وعاد إلى الشاطئ شديداً أسى كاسى
 بال . وابتسمت له ليكوسيا من بين الدموع
 الواكفة فقادها الرجل إلى الشاطئ بلوعة الودع
 وجوى الماشق المشفق
 — وداعاً يا صاحبي !

— آه ! لو وهبك الاله من لدنه أقداماً !
 — حسن يا صاحبي ! فليس لي أقدام ، ولا
 أود أن يكون . فإلى بها من حاجة في هذا البحر
 اللجى . سوف أنسى كل شيء أو أحاول .. وسوف
 أسير سيرتي الأولى . وإن قدر لي أن أذكرك بين
 الماء والسماء فيا لسعدى وهنائى ! ولكنى سأشفق
 على نفسي خشية أن يحطمها الهوى ... وسأشفق
 عليها مرة أخرى ... فما أشد خوفي أن أطرح بعد
 أن يسخط على نبتيون الأعلى

وبكى أفريون بكاءً مرأ . وصاح بها :
 — كوني كما شاء نبتيون الطاغية ! ولسكن
 تعالى ! تعالى نكن كما شئنا وشاء لنا الهوى !
 وما كان أفريون إلا أحمق وعجولا . وما منعه
 أن يأتي حماقته إلا « زيتيس » الوادعة ! وقالت
 لهما إذ تستوى في جلال الآلهة :

— لقد سرتني أمركما وأطربني ، وإني لمعجبة
 بكأ سوياً ، فأنت ياليكوسيا قد أكرمت مثوى فارس
 صنديد ، ظاهر ولدي آخيلوس بن بيلوس إذ هو
 بنار الحرب صال . وأنت — يافريون — قد